-٦-

نقولا حداد فى حياته وثقافته

لقد هبت رياح الهجرة على لبنان كما تهب الأعاصير فتبدد شملها، لكنا تحمل اريجها الى مكان آخر، كذلك حفزت الهجرة نفرا من شباب لبنان، وقد ضاق افقه بطموحهم ونبوغهم فانطلقوا كما تنطلق الطيور من اقفاصها، ولا اعدو الصواب فقد كان حكم العثمانيين لبلاد العرب غاشما عاتيا، كبت الحرية والمواهب الفكرية، وضيق الخناق والارزاق، فانفلت من انفلت الى الامريكتين، وانقلب من انقلب الى وادى النيل، حيث نزل فريق من اللبنانيين والسوريين، وكانوا يسمون جميعا الشاميين، وما تزال هذه التسمية تطلق عليهم فى مصر، فلم يهبطوا مصر هبوط المتنبى بفارس، ولم يكن منهم احد غريب الوجه واليد واللسان بضفاف النيل. وقد سبق المصريون جيرانهم واخوانهم الى تنسم الحرية بسبب خلاصهم من الحكم العثمانى واستقلالهم بولاية البيت العلوى الكبير.

ولو اتيح لكاتب او لمؤلف ان يستقصى اخبار هؤلاء النازحين منذ اعقاب القرن التاسع عشر الى الديار الاميركية او المصرية، لأتى على

المجلدات الضخام، دون ان ينفد ماعنده من سيرهم واخبارهم، انها عالم هائل يعج بكبريات الاحداث وصور السعي والكفاح، فثورة الكرامة والطموح، وفورة العزائم وقوة الارادة والايمان بالله والمستقبل، كل ذلك موضوعات منوعة واسعة المجال، تجول فيها الحقيقة اكثر مما يجول الخيال، وكانت منازع هؤلاء تختلف وحظوظهم تتفاوت فمنهم من طلع نجمه فى التجارة حتى اثرى فانسته الثروة غابره الأنكد، وقد أمرع نبته واينع، فاتخذ الدور والقصور وملك المصانع والسيارات، فكان ذا فضل على نفسه، او قليل الفضل على غيره، ومنهم من لم يستطع ان يتخلى عن حرفة الادب الذى ادركه منذ الصغر فاتخذ القلم عدة وسندا، ولم تلهه عنه حرفة او وظيفة، وكان فضل هذه الطائفة اعم وابقى، لانها عملت لمجد دنياها وسمعتها.

وفى آفاق مصر اطلت اقلام المهاجرين كواكب كان لها من الاثر البالغ والصيت البعيد ان اسهمت فى نهضة الفكر والصحافة بوادى النيل. وسأتخذ من « الأديب » مجال القول ذا سعة فى الكلام على من عرفت من هؤلاء واحطت باخباره وآثاره وكانت له يد فى كرامة العلم والحرية، وانى لبادئة وحفية بالترجمة والتحليل لعالم طلعة وفيلسوف رياضى عرفه قراء « الأديب » وملأت شهرته ديار النيل، ذلك هو الاستاذ نقولا حداد.

فى قرية « جون » من قضاء الشوف بلبنان، جوار دير المخلص المشهور، ومدينة « صيدون » العريقة بتاريخها وآثارها كان مولد « نقولا الياس حداد » عام ١٨٧٢.

وقد بدت فى طفولته ونشأته ملامح الوعى المبكر، فادخله اهلوه المدرسة الامريكية فى صيدا، وكانت مدة الدراسة خمس سنين فاتمها فى ثلاث، اذ كان فى عطلة الصيف يدرس على نفسه دروس السنة التالية، ثم يؤدى امتحاناتها فيرقى الى ما بعدها، وهذا التفوق جعل المرسلين من الامريكيين للتعليم ينتدبونه للتدريس قبيل تخرجه من المدرسة وبعده، واخذت نفسه تطمح الى العلوم العالية ودراسة اللغة الانكليزية، التى تتيح له تحقيق طموحه فى الكلية الامريكية ببيروت « الجامعة الآن » واستطاع بجده ودأبه أن يجتاز الامتحان للسنة الثانية من القسم العلمى فيها.

وقد مال الى الكتابة وهو فى مدرسة صيدا، طالبا ومعلما فأنشأ مع اترابه واصحابه صحيفة سماها «المحبة»، حظت بتقدير المدير الامريكى حتى اعد لها مطبعة خاصة، وفى كلية بيروت اسس مع بعض صحبه جريدة باسم «الحكمة»، ولم يقنع بالنشر فى هذه الصحيفة المدرسية، بل كان يكتب مقالات للنشرة الاسبوعية ولسان الحال وغيرها فى بيروت، وقد تمرس بنظم الشعر حتى لقب بشاعر الكلية فى ذلك العام وصار يدعى الى الحفلات العلمية والادبية ليلقى خير قصيدة فيها، وكانت مجلة الضياء لصاحبها الشيخ ابراهيم اليازجى تحتفى بشعره فتنشره تقديرا له وتشجيعا.

وفى اعقاب الدراسة بالكلية الامريكية عرضت عليه المشاركة فى تحرير « الرائد المصرى » لصاحبها المرحوم نقولا شحادة، فآثر الصحافة ملبيا مرضيا، وبادر الى القاهرة على شوق واستعداد.

وحين ادرك ان الصحافة وحدها لا تؤمن المعاش، احب ان يتعلم الطب غير ان بعض التكاليف والتبعات صرفته الى دراسة الصيدلة التى كانت فاتحة عهد جديد فى حياته، فقد اتقنها واجادها غير ان الحنين الى الصحافة بقى يعاوده فلم يكد يحصل على دبلوم الصيدلة حتى عاد الى القاهرة محررا فى « الرائد المصرى » زهاء اربع سنوات، وفى هذه الاثناء عرف الكاتب المتحرر الاستاذ فرح انطوان صاحب مجلة «الجامعة» التى كان لها دوى بعيد فى عالم الفكر والمجتمع.

وفرح انطون لا يستطيع القلم ان يتجاوز اسمه دون ان يؤدى اليه حقه من الذكر الجميل فقد كان علما من اعلام النهضة الفكرية فى الشرق، ولولا ان شيخنا العبقرى مارون عبود قد جلا للجيل الصاعد صورة رائعة لفرح انطون لظل مجهولا لدى الكثيرين من المعاصرين.

لقد اتيحت الشهرة وانبسطت آفاق التأليف اعجابا بآثار الشدياق واسحاق، واليازجيين والبستانيين وجبران والريحانى، فعرفهم الناس وتداولت الايدى آثارهم، وكان وفاء جميلا من ادباء العصر ان يذيعوا فضلهم ويحللوا منتوجهم ومحصولهم، ولو اتيح مثل ذلك لفرح انطون وهو لا يقل عن هؤلاء فكرا واثرا لحقق ذكره فى الاسماع والمحافل. وكانت الاديبة الآنسة روز شقيقة فرح تمارس الصحافةوتنشئ مجلتها « السيدات والرجال » فخطبها الاستاذ نقولا حداد، وكانت هذه الكاتبة المثقفة تتفتح فى قلمها وتفكيرها مثل

زهر اطل على الربيع، ولأمر مكتوب فى التئام الشمل بين اديبين ليؤتى اطيب الثمرات الفكرية فى عالم الصحافة والتأليف ان خطب الاستاذ نقولا حداد وردة الفيحاء التى انبتتها طرابلس الشام، ثم اتفق الكاتبان على الهجرة الى الولايات المتحدة، مستجيبين لدعوة بعض الاصدقاء الذين لوحوا لهما بمستقبل رائع فى نيويورك، حيث ينشئان « الجامعة » جريدة يومية.

وما كاد يستقر بهما المقام ويحققان رغبتهما ودعوة الاصدقاء، حتى قامت دونهما عقبات فانصرف الاستاذ نقولا الى التجارة، لكنه اخفق فيها، اذ كانت امريكا يومذاك تعانى ازمة مالية فاضطر الى العودة لمصر، وفيها حن الى الصحافة التى احبها ولباها، فانتدب للتحرير بجريدة « المحروسة » اليومية التى كان يصدرها الاستاذ زيادة والد المرحومة « مى » كما نضم الى اسرة التحرير فى الاهرام وقد احتفت كبريات الصحف والمجلات فى مصر والمهجر بشعره ومقالاته.

ولم يجد مناصا من التمرس بالصيدلة التى وأتت طبيعته وثقافته فاسس صيدليته المعروفة الى اليوم باخزاخانة حداد، فى شارع شبرا الكبير، وقد عدت هذه الصيدلية من الصيدليات الكبرى الاربع التى اختصتها مصلحة الصحة العامة بمصر للخدمة الليلية فى القاهرة.

ولما انتهت الحرب العالمية الاولى تاقت زوجته السيدة روز انطون الى اعادة مجلتها التى توقفت بسبب هجرتها لامريكا، وقد استعانت بزوجها على انشائها ونشرها.

وعلى الرغم من انصراف الاستاذ نقولا الى تجهيز صيدليته بجهازها الممتاز واشرافه عليها فانه لم يفتر عن الدرس والبحث فى علوم العصر، وما سئم التنقير والتأليف فقد وضع كتابه المشهور فى علم الاجتماع بمجلدين ضخمين ـ الاول فى حياة المجتمع، والثانى فى تطوره وكان سباقا الى التأليف فى هذا الموضوع بالشرق العربى، وتأليفه هذا يعد فى تاريخ التدوين المعاصر مأثرة حميدة وسبقا مجيدا، اذ ان علم الاجتماع من العلوم الحديثة فى تاريخنا، وقد كان من اخلاص المؤلف للعلم انه لم يرض عن كتابه « الحب والزواج » فلما أعاد طبعه أعاد وضعه وبناه من جديد، على وجه يرضاه التتبع والشمول، وما لبث ان نشر كتابه « ذكر وانثى خلقهم » ولا ريب فى ان لحياته الزوجية اثرا فى هذين الكتابين، وهذا يدلنا على اصالته وسجيته فى التأليف، وكذلك وجدناه فما نلقاه او نتحدث اليه ويتحدث الينا حتى يعكس لنا بمرآة نفسه الصحافية حياته التى يحياها كل يوم وهذا ضروب الايمان الفكرى الذى يظهر فى كل حين عند اهليه الاصفياء.

ومؤلفات الاستاذ حداد بواكير فى موضوعاتها، فمنذ ثلاثين او اربعين عاما لم يكن علم النفس معروفا بالشرق ولا شاعت كتبه وآراؤه، وهو علم لا يزال حديثا فى الغرب، أفليس من سوابق التأليف والاطلاع ان يكتب الاستاذ نقولا فى هذا العلم المعاصر فى تلك الردحة البعيدة فيؤلف كتابه علم ادب النفس ويخوض فى الفلسفة الخلقية والروحية بما لا يستطيع ان يخوض فى افضل منه اساطين الفلسفة المعاصرة.

وكتابه فى الاشتراكية قديم، يوم لم يبلغ هذا المذهب مسامع الشرقيين، وما يكاد جليسه يثير ذكرى هذا الكتاب حتى يعتدل المؤلف فى جلسته ويحكم وضع نظارتيه على ارنبة انفه، واذا هو من وراء السنين فى بياض شعره ووقار سمته آخذ بشرح المذاهب الاشتراكية وماكان من امر الانجيل الحديث فيها الذى وضعه كارل ماركس، والاستاذ حداد معتدل فى آرائه الفلسفية شأن المفكرين والحكماء، متتبع لمذاهب الفلسفة ومؤلفاتها فى الغرب والشرق لا يفوته اى جديد فيها.

ولا ادرى كيف اصف احاطة الاستاذ حداد بعلوم العصر، فهو عالم طلعة ما كاد يدور فى اسماع المثقفين اسم اينشتين ونظريته النسبية حتى توسع فى علوم الطبيعة والفلك والالمام بكتبها القديمة والحديثة، حتى استطاع ان يحلل تلك النظرة التى شقت على الاكثرين، ثم ألف « هندسة الكون حسب ناموس النسبية » و «فلسفة التفاحة او جاذبية نيوتن» ففى الكتاب الاول بسط المؤلف مقومات الناموس الرياضى الذى ابتدعه اينشتين، وكان هذا الناموس من اغرب الالغاز العلمية فى هذا العصر لما فيه من بحوث غامضة استطاع الاستاذ حداد ان يجلو هذا الغموض للمثقفين العرب، وقد راى ان فهم النسبية ممن عالجوها اهون من تفهمها من صاحبها الذى لم يستطع ان يصوغها بشكل واضح، وسيظل كتاب الاستاذ حداد عن « اينشتين ونظريته النسبية » احد المصادر الجامعية فى الدراسات الرياضية المعاصرة.

اما الذرة وشروق عالمها الحديث، فقد تلقاه الاستاذ نقولا قبل غيره من علمائنا المتبحرين، فكان سباقا الى تفهم الذرة وتفتيتها فيما نشره من مقالات طريفة ثم فى كتاب « عالم الذرة أو الطاقة الذرية » فكانت مفتاح البحث فى هذا الابداع العلمى الذى طلع من الغرب وحول الحضارة الحاضرة الى عهد لا يدرى أحد مدى العمران فيه او التهديم، ولو كان العرب كيان دولي يتيح لهم كلمة فى العلم المعاصر لصح ان يكون الاستاذ حداد احد علماء الذرة، ولكني استغفر الله، فانا اجيره من هذه الحمأة الوبيلة فان علماء الذرة انما يكيدون اليوم للانسانية ويعدون لها أفانين الفتك والتدمير، اما هو فرجل ملائكى الطبع انسانى المذهب، على طول ما عرفته ما سمعت عنه كلمة تؤذى مخلوقا، ولا عانيت منه فعلا كان للسوء.

وللاستاذ حداد روايات اربت على الثلاثين عدا، وضعا وترجمة، وقد اعيد طبع بعضها وترجم بعض منها الى اللغات الفارسية والهندية، وتتناول رواياته قضايا اجتماعية خطيرة، وجلها يهدف الى خير الانسانية فى تهذيب النفس وامتاع الروح.

كذلك شعره الكثير الذى لم يجمعه ديوان مطبوع، غير ان النزعة العلمية والفلسفية تغلب على قصيده من طول تمرسه بالعلم والفلسفة.

على ان القارئ يحار فى آفاق الاستاذ نقولا حداد وقد تعددت وتجددت، فهو متنوع المواهب، موزع الثقافة، ومحل تشبيهه ليس فى

هذا العصر الذى ساده الاختصاص والتفرد بلون واحد من الوان المعرفة، اما موضع تشبيهه ففى عصور العرب الزاهرة حين كان الجاحظ وابن سينا وعمر الخيام وابن مسكويه وامثالهم من اهل الموسوعات العلمية يخوضون فى علوم مختلفة، ويؤلفون فى اشتات المعارف، وقد قل هذا الضرب من المفكرين والمصنفين فى عصرنا، ولا ينسى احد من المطلعين المتتبعين مقالات الاستاذ حداد فى قضية فلسطين، فقد جلا فيها تاريخ اليهود قديما وحديثا، وبصر العرب بكيدهم وحقدهم وافانين عيسهم وبطشهم وكان الحديد حاميا والاوار مشتعلا وما حيلة القلم اذا حيل بين السيف والنصر، وجأر الزمان بغدر المارقين والمنافقين.

وللاستاذ نقولا حداد آراء ونظرات شأن العلماء الافذاذ فى مذاهبهم وتوجيههم وأهمها:ـ

ـ امكان انتقال الموجات الفكرية من « دماغ الى دماغ » بواسطة الاثير او بمثل الواسطة التى ينتقل فيها المذياع.

ـ ان المثل الاعلى للمجتمع هو التكتل الاجتماعى حول نواة الادب النفسى الاعلى، ومن نتائج هذا التكتل اتحاد الامم فى امة كبرى كاتحاد الافراد فى جماعة، وسيكون ذلك على قاعدة الديموقراطية الاشتراكية، وحينئذ تكون الآداب العليا كغرائز فى البشر بعد زمان طويل.

ـ ان العقل الانسانى سيرقى جدا بحيث يصبح كثير من الامور التى يتلقنها الآن بديهيات يفهمها من تلقاء نفسه او بأقل تلميح او تلويح.

ـ ان العلم فى المستقبل سيبلغ الى آخر حدود الكون فيعلم الانسان منتهى الفضاء ويعلم جوهر مشتملاته.

ـ ان الاصلاح الاجتماعى لا يحدث الا على ايدى اهل العلم حين يفلس رجال السياسة.

هذه طرف من أرائه العلمية ونظراته فى المجتمع والحياة، والأستاذ حداد كتاب سيار ونجم دوار ما تلقاه فى مجلسه الاكان لك من حديثه فصل من كتاب، او نقاش فى جدل او تبحر فى مسألة عويصة يأخذ منك ويعطيك ، وكما اتقن فن الكلام بحجة وبرهان كذلك اتقن ادب السماع والاصغاء فهو يصيخ اليك بجملة نفسه حتى يتجلى لك تواضعه فى العلم والحديث، ولو انك رحت تطارحه بما يناقض رايه وتسدد الهجمة عليه لوجدت الصدر الرحب والابتسامة الكريمة.

ولئن ضرب الدهر بينه وبين وطنه الاول فانه طائفة من اترابه وصحبه ما يزالون اذا جمعتهم الاماسى فى ناديهم الشرقى يأخذون بذكر مرابعهم التى درجوا منها والاسباب التى حفزتهم للهجرة والتمصر فيتتبعون مراحل التطور فى آفاقهم الاولى، ويبدو ان الانقطاع الطويل والاستقرار الجميل على ضفاف النيل قد اشاع الفتور فى شعورهم نحو الوطن الاول،

غير ان الدم الذى يسرى فيهم ونوازعه الاصيلة النبيلة يحدوهم فى كل سانحة للتآلف والتزاور والاجتماع فى ندوة واحدة، يتحدثون ويسمرون، ويسمعون للموسيقى التى يحبها الاستاذ نقولا ويؤخذ بسحرها، فهو ذو راى طريف بالموسيقى، ذلك انها يمكن ان

تكون سبيلا لتهذيب شعور الامة وان على الحكومات العربية ان تتوسل بها بهذا الغرض، ويمر بخاطرى الآن اثر المواطن المبدع الاستاذ ميشال الله ويردى الذى ألف كتابه الضخم « فلسفة الموسيقى الشرقية » وقد دعا فيه الى جعل الموسيقى وسيلة لتفاهم الشعوب وسبيلا الى السلام والوئام بين الامم فلقى كتابه حفاوة وتقديرا فى الغرب ومرت به امته وبلاده مرور السحاب، فهما اى الحداد ويردى يلتقيان بهذا الراى السديد، ولا بدع فكلاهما خالص النزعة للانسانية المعاصرة.

لقد ادى الاستاذ نقولا حداد رسالته على الارض اداء مثاليا، فهو زوج وفي ، واب رحيم، وسيعيش بعد عمر طويل السنين المضاعفة المباركة، لانه وضع نفسه فى ولده النجيب الذى تثقف بثقافته الكيماوية وتمرس بها طويلا حتى غدا فيها عالما مرموقا، يبتكر الدواء والبلسم، ويحترف الصيدلة الموفقة بمصر، وقد اعد بنتيه للحياة الجديدة، فاحداهما تثقفت بثقافة امها الصحافية الاولى، والثانية تعلمت علم ابيها.

هذه المامة بحياة الاستاذ نقولا حداد، وعلمه وعمله، وفى النفس شوق الى ابعد من ذلك فى مواهبه وتجاربه، فهو على الرغم من استراحته بعد رئاسة المقتطف، دؤوب على المطالعة والتأليف، ولا ندرى بماذا سيطلع على الناس من كتبه وآرائه فى وقت قريب.

* * *